

دلالية العنونة في المتن الروائي للطاهر وطار

Semantic of the title in Tahar wattar's novels

* أحمد زعزاع

Ahmed zaza

كلية الآداب واللغات جامعة البليدة 2 (الجزائر)

University of Blida 2 - Algeria

ahmedzaza@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/12/25

تاريخ القبول: 2020/10/12

تاريخ الإرسال: 2020/04/16

ملخص البحث

يرتبط اسم الطاهر وطار باللحظة التأسيسية للرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية مطلع السبعينيات، من خلال تبنيه لرؤية جديدة في مقارنة الواقع الاجتماعي مواكبا تحولاته المختلفة، فجاءت رواياته سجلا شاهدا على التاريخ وتحولات المجتمع، بدءا من "اللاز" و"الزلزال"، مروراً بـ"تجربة في العشق" و"الحوات والقصر"، وصولاً إلى "الشمعة والدهاليز" و"الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء"، وغيرها من عناوين أعماله الروائية. وصارت هذه النصوص دالة على الطاهر وطار، كما صار هو دالا عليها وعنوانا لها، لا يُذكران إلا مقترنين اقتزان النص بعنوانه، وذلك لما شحنتها به من إمكانيات إبداعية بتوظيفه لمختلف العناصر البنائية شكلا ومضمونا، داخل النصوص وفي ما يحيط بها، خصوصا ما كان في عناوين الروايات، الأمر الذي حفزنا على مساءلة هذه العناوين لمعرفة كنه المحمولات المولدة للقوة الدلالية فيها وتحليلاتها المختلفة.

الكلمات المفتاح: وطار؛ عنونة؛ دلالة؛ أدب جزائري؛ تناص.

Abstract :

Tahar wattar's name is related to the foundation moment of the Algerian novel written in Arabic in the early 1970s, through his adoption of a new vision to approach the social reality and keep pace with its various transformations. Starting with "Al-laz", "The Earthquake", "A Mule's Wedding", "The Fishman and the Palace", up to "The Candle and Vestibules", and "The Saint raises his hands in prayer". These titles have become an important part of our literary memory, indicating Tahar wattar as he became their sign, cannot be mentioned separately due to the semantic potentials he loaded in them. Nothing can indicate that better than the powerful suggestive titles he creates, which motivated us to question these

* أحمد زعزاع: ahmedzaza@gmail.com

titles to know what are the generators of the semantic power and their manifestations.

Keywords : Taher wattar; titles; semantic; Algerian literature; intertextuality.



مقدمة:

لا تخفى الأهمية التي أصبح يوليها الدرس النقدي لعنصر العنوان كمفتاح إجرائي أساسي للولوج للنص، لما له من دور كبير على مستوى العلاقة التفاعلية الأولية بين المتلقي والنص، وتجاوز الوجود الشكلي المتعلق بالتسمية فقط إلى حدود المشاركة في التدليل وبناء المعنى.

وسنحاول في هذه المقاربة للعناوين الروائية للروائي الجزائري الطاهر وطار ملامسة مختلف الجوانب الوظيفية فيها، مع التركيز على القيمة الدلالية بشكل خاص، مستثمرين الأبعاد الإيحائية المتولدة عن هذه العناوين في حد ذاتها، نظرا للمحمولات الرمزية التي تتمتع بها، كون العنوان في الدرجة الأولى علامة سيميائية قابلة للقراءات المتعددة، وذلك عبر تتبع مستويات ثلاثة: البنية التركيبية والحضور الدلالي والتفاعل النصي.

أولا- البنية التركيبية للعناوين والمحامل الدلالية:

إن العمل الأدبي إبداع لغوي في أساسه، والعنوان جزء لا يتجزأ من ذلك، فمهاره اختيار العنوان على مستوى اللفظة والصياغة والسياق تتطلب كفاءة خاصة ومعرفة بأسرار اللغة وجماليتها، لذا نرى وطار يتفنن في انتقاء البنى اللغوية لعناوينه بين الأفراد والتركيب، فجاءت متراوحة بين الطول والقصر، ما جعلها ذات بعد جمالي ومحمول دلالي متنوع لا يمكن الإحاطة به إلا بتجاوز المبنى اللغوي السطحي إلى المستوى العميق الباعث للدلالة المتولدة في دواخل النص عن طريق الفعل التأويلي.

1- البنى الإفرادية للعناوين:

يكون العنوان في هذا النوع من العناوين عبارة عن مفردة واحدة، وتجسد ذلك عند وطار في عمليتين اثنتين: "اللاز"، و"الزلزال"، إذ جاءا كاسمين مفردين محتزلي التركيب، ومن المعروف أنه كلما احتزلت اللفظة زادت قدرتها الدلالية وتكثف المعنى فيها. ففي مقاربة عنوان "اللاز"¹ نجد هذه الكلمة تحمل معنى قاموسيا يوحي بالارتباط والالتصاق، كما أنها في جانبها الشعبي تحيل على دالتين اثنتين: الأولى مرتبطة بلعبة الورق أو "الدومينو"، حيث تجسد هذه الأخيرة لعبة

الحسابات التراتبية، التي لا يظهر أي حجر فيها إلا كنتيجة حتمية لظهور الأحجار الأخرى، أما الثانية فتقترن باستعمال كلمة "اللاز" في المصطلح الشعبي بمعنى الإشارة الخفية، فكأن الدالتين الشعبيتين مجتمعتان تلحان على فكرة التركيز والتدقيق، وضرورة إعادة مراجعة الحسابات إزاء شيء ما، أو واقع معين.

وإذا تحركنا باتجاه النص الروائي لإضاءة الأبعاد الدلالية الداخلية للعنوان "اللاز"، وجدناه دائم الحضور كعلامة سيميائية مشعة، تمثل أحد أهم الشخصيات الفاعلة في الرواية، يصادفنا منذ الوهلة الأولى في صورة من القوة والبأس وسط جو من الصراع، فهو "مكابري معاند وقح متعنت لا يهزم في معركة وإن استمرت عدة أيام يضربه المرء حتى يعتقد أنه قتله لكن ما إن يتعد حتى ينهض ويسرع إلى الحجارة"². ومع توالي القراءة تظهر محمولات دلالية أخرى تبرز من خلال نوعية العلاقات التي تربط شخصية اللاز ببقية الشخصيات في الرواية خاصة شخصية زيدان، حيث تقودنا الدلالة إلى البحث في المحمول الإيحائي لعلاقة الأبوة التي تربط زيدان باللاز "آه زيدان أبي المسكين.. ربما كنت بمثابة شرارة انطلقت منه لتؤدي بعض الدور الذي لا يستطيع تأديته هو"³.

وتتلاحق العبارات تنير العنوان، حتى تصل إلى نوع من المباشرة "فيك بذور كل هؤلاء يا اللاز.. بذور كل الحياة.. كالبحر، لا، إنك الشعب برمته، الشعب المطلق بكل المفاهيم"⁴، فيصبح اللاز والشعب شيئا واحدا، الأمر الذي يجعلنا نُسائل تلك الإيحاءات الأولية على ضوء هذا المفهوم الالتحامي الأخير، خاصة ما ارتبط بدلالة العلاقة بين زيدان واللاز، لتواجهنا حقيقة اللاز أخيرا في كونه "الشعب الذي سيرث ألام أبيه ورفاقه الذين ضحوا بأنفسهم بدل أن يضحوا بقناعاتهم. ومن هنا تأتي قيمتهم التاريخية، اللاز البهلول كما يتراءى لأول مرة يجسد ذاكرة الشعب والثورة الوطنية التي لا تمحي"⁵.

وهذه القراءة التأويلية النسبية التي تتقاطع مع رؤية وطار تتطعم بالدلالات الأولى المتمثلة في الصمود والتغيير، حيث أن هذا الشعب سيضل صامدا مكابرا لا يهزم، باحثا عن التغيير على أسس حقيقية تستمد قوتها من الذاكرة الكلية، التي تعترف للجميع بجهوده في تكوّن هذا الوطن ممیطة اللثام عن تناقضات الثورة وتكرها لبعض أبنائها. وبهذا يمكن القول إن وطار استطاع أن يجعل من عنوان روايته - بالرغم مما تميز به من احتزال لغوي- خزاناً للدلالات والإيحاءات الواسعة،

يستطيع القارئ من خلال الربط بين العنوان ونصه تبين أبعادها المختلفة، لعل على رأسها ضرورة إعادة النظر في الكثير مما يتعلق بالذاكرة الجمعية.

2- البنى المركبة للعناوين:

وتمثل العناوين التي تتميز ببنية لغوية تتجاوز المفردة الواحدة لتشكّل في جملة أو أكثر، وهي من حيث تواترها في أعمال وطار تكاد تكون السمة البارزة إذا استثنينا العناوين السابقين "اللاز" و"الزلزال"، وتمثل المرحلة المتأخرة من روايات الكاتب خصوصا. وجاءت هذه العناوين متنوعة بين الإسناد مثل رواية "تجربة في العشق"⁶، حيث تسند شبه الجملة "في العشق" إلى المبتدأ "تجربة" على مستوى اللغة، ويصاحب ذلك الإسناد اللغوي تكامل المعنى على المستوى الدلالي، فتتماهى دلالة العشق ذات المحمول النفسي العميق الذي يكاد يرقى ليكون حالة روحية ثابتة دائمة مع المعنى السطحي في دلالة لفظة تجربة المغرق في الحسية لتشكّل جمالية العنوان الجامعة بين الظاهر والباطن، كما وردت معطوفة مثل "الحوات والقصر"، و"الشمعة والدهاليز"، و"العشق والموت في الزمن الحراشي".

وفي تميز العناوين بما تتسم به من طول متفاوت من عنوان إلى آخر تكمن قيمة المحمولات الدلالية المختزنة فيها، والتي لا يتأتى الوقوف عليها إلا بتفكيك بنيتها التركيبية بواسطة الفعل التأويلي للمفردات المشكلة لها. فإذا أخذنا عنوان "الحوات والقصر"⁷ على سبيل المثال، وحاولنا محاورة المفردات الثلاث المركبة له، باعتبارها علامات لغوية تحمل دلالات معينة، وجدنا التشكّل الدلالي يرتكز على حرف العطف، حيث بدت الواو وكأنها تعمل عكس وظيفتها النمطية المتمثلة في الربط والجمع، فكانت وظيفتها أقرب لإقامة التعارض نظرا للسياق الذي وردت فيه المقترن بلفظي "الحوات" و"القصر"؛ فلفظة القصر بإحالتها على مقام سام ومكان مرموق يتصل بالسلطة ذات الطبيعة الاستغلالية، التي لا تتوانى في استعمال أي أداة لتحقيق أغراضها، تكاد لا تلتقي أبدا مع لفظة الحوات المرتبطة دلاليا بالمستوى الشعبي البسيط الرامز للصر والمثابرة بحثا عن أعماق الأشياء.

والنص ييوح بتلك العلاقة المتوترة التي خلقتها المفارقة الموجودة على مستوى العنوان، إذ نجد أن علي الحوات بعد أن كان يسعى للاقتراب من القصر في البداية، ناذرا أن يقدم أجمل وأكبر سمكة للسلطان، بما تحمله السمكة من دلالات التضحية بأقصى ما يمكن أن يحصل عليه إنسان

بسيط بعد جهد جهيد، فهو يقول: "لقد نذرت أجمل سمكة لمولاي السلطان وسألني. سأنتظر أسبوعا، وسأجدد بعد انقضائه نذرا آخر لمدة أسبوع، وسأنتظر. سأظل أنتظر، حتى أصطاد أجمل سمكة"⁸، بعد كل ذلك يصل أتباعه نتيجة ما لحق به من أذية من السلطة إلى قناعة إبادة القصر، لفعله المضاد لفعال التطور، إذ كلما حاول علي الحوات الاقترب اختطفت منه السلطة قيمة رمزية ما، فوصلوا إلى قناعة أن "علي الحوات لا ينصر بالكلام فقط. إلى السلاح أيها الشرفاء"⁹، فأصبحت العلاقة صدامية.

واستغل وطار ذلك الفعل الصدامي في بناء معمارية عنوانه على أساس من علاقة التضاد والتنافر تلك، والتي أبرزت جمالية التركيب. وبذلك نجد أن صياغة العنوان على عنصر التضاد المتولد عن وجود الواو في سياق الجمع بين المتناقضات لم يرد عفوا، بل جاء في إطار من الرؤية الواعية بحتية الصراع، ودليل ذلك العناوين الأخرى المعطوفة، كما في "العشق والموت في الزمن الحراشي"¹⁰، بربط وطار إرادة الحياة والحب في العشق بإرادة الفناء والبغض في الموت، أو "الشمعة والدهاليز"¹¹، حيث جمع النور المنبعث من الشمعة مع الظلمات الكامنة في الدهاليز، وكلها محمولات رمزية تحيل على صدمات تيارات فكرية وطبقات اجتماعية على المستوى الواقعي.

وعلى الرغم مما تبدو عليه عناوين وطار من الاختلاف على المستوى الشكلي المتعلق بالحجم يمكننا تبين بعض الخصائص المشتركة بينها، مثل تركيزها الواضح على عنصر المكان الحاضر ظاهريا في "الحوات والقصر" و"الشمعة والدهاليز" و"الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"، أو ضمنا في "الزلزال" و"العشق والموت في الزمن الحراشي". وارتباطها على المستوى النحوي بالجمل الاسمية مع قوة حضور الاسم على حساب الفعل فيها الذي لم يظهر إلا في العناوين الأخيرين "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"، و"الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء".

ثانيا- العنوان والمتن/ جدلية الحضور والغياب

في هذا المستوى من التحليل سنلاحق التشكل النوعي للفعل الدلالي، حضورا وغيابا في العنوان، وتمظهرات ذلك في المتن من خلال العلاقات الانعكاسية الرابطة بينهما، عبر تتبع دلالة الحركة، وكذا الرمز الصوفي في روائي "الزلزال" و"الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء" على التوالي.

1- الإظهار والإضمار/ الحركة في "الزلزال":

كتب وطار رواية "الزلازل"¹² محاولاً فيها رصد التحولات الاشتراكية للبلد، وموقف البرجوازية الصغيرة من استرجاع وتأميم الأراضي الزراعية، وسنحاول تتبع التوتر الدلالي للحركة المرتبطة بالمفردة المشككة للعنوان "الزلازل". فانطلاقاً من العنوان نجد عبارة عن اسم مجرد، والاسم كما هو معروف في النحو يقابل الفعل، من حيث ارتباط الاسم دلالياً بالسكون والنبات، واقتزان الفعل بالحركة والتغير. وإذا أردنا تتبع الدلالة القاموسية للعنوان "الزلازل" وجدناها تحيل إلى الحركة والتغيير بتجلياتها المختلفة، لعل أبرزها الدلالة المباشرة المحيلة على حركة الأرض الخفية الباطنية المدمرة، العاملة على تغيير سطح الأرض، بخلق ملامح جديدة على أنقاض الملامح القديمة¹³. وبالجمع بين المعنى القاموسي والبعد النحوي لكلمة الزلازل يبرز بين أيدينا أول ملمح من ملامح علاقة الإضمار والإظهار في العنوان، إذ يتجلى الغياب من خلال سيطرة السكون المرادف للاسم كمعطى نحوي، في حين يهيمن ظهور الحركة من خلال الاستناد على المحمول الدلالي لكلمة الزلازل. وهكذا يكتسب العنوان في شكله الإفرادي ملمحاً سكونياً ظاهراً، مبطناً بحركة عنيفة.

وإذا ما ولجنا العتبة النصية باتجاه النص، باعتبارها يدخلان في عملية تأويلية عكوس، الدلالة في أحدهما تقفز إلى الآخر، لاحت لنا حركة الزلازل تتشكل في مظهرين اثنين: أولهما حركة التغيير على المستوى الاجتماعي، وما تمخض عنها من زلزلة فئة البرجوازية التي تجعل من الأرض أساس وجودها وهيمنتها، زلزلة هزّت أعماقها لتطمس ملامحها لصالح فئة اجتماعية أخرى، تجلت في التغيير الذي مس المدينة، حيث فقدت صفات الفترة الاستعمارية المرتبطة بملاك الأراضي، واكتسبت أخرى ارتباطاً بنوعية سكانها الجدد، الذين لم يصبح فيهم باشاوات ولا آغاوات، بل صار أغلبهم من الطبقة المتوسطة، ف"قسنطينة الحقيقية انتهت.. أقول زلزلت زلزالها. لم يبق من أهلها أحد كما كان"¹⁴. وهذا ما يجعل الحركة تظهر في بعدها المحسوس، كاستجابة لمعطيات الواقع المرتبطة بحركية المجتمع المستمدة من تبنيه للرؤية الثورية القائمة على صراع الطبقات، جاعلة من التغيير في الأخير حتمية لا مفر منها.

أما ثاني تشكك لدلالة الزلازل فيرتبط برّد فعل الفئة الإقطاعية المناوئة لتطبيق التأميم، والتي لم تصمد طويلاً أمام الهزة التي عصفت بها، رغم وجود محاولات تشبث انتقلت بعد اليأس من مستوى الفعل المتمثل في استغلال جميع الوسائل المتاحة أمامها للتصدي بما فيها الدين، إلى مستوى التمني بعد الشعور التام بالانهزام، حيث يلجأ بولرواح إلى الولي سيدي راشد في التجاء

من لا يستطيع فعل شيء لـ"يزلزل" الأرض بمن عليها في شكل "نار فتنة تأكلهم. زلزال عظيم يأتي على الرعاع الذين يفكرون في منحهم أرضنا"¹⁵، وكأن حركة التغيير الظاهرة في الإصلاحات أيقظت حركة ارتدادية باطنية ذات أبعاد نفسية في "أعماق" بولرواح، رمت به، في الأخير، إلى الاستسلام للأمر الواقع، فالجنون¹⁶. وهكذا نخلص إلى أن الإضمار والظهور اللذين وُجدا على مستوى العنوان صنعا لهما امتدادا في النص من خلال التشكيلين السابقين.

2- التجلي والخفاء/ الرمز الصوفي:

إذا كانت المتون الروائية الأولى لوطار قد استلهمت الواقع كمادة إبداعية، وعالجته وفق رؤية معينة استثمر الروائي فيها التاريخ والتراث والأسطورة، فإننا نجد محاولة استلهام البعد الصوفي ابتداءً من "الحوات والقصر"، ثم "الشمعة والدهاليز"، قبل أن يبرز بشكل أكثر وضوحاً في روايته "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الركي" و"الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء"¹⁷، هذه الأخيرة التي سنرصدها فيها أبعاد التجلي والخفاء على مستوى الدلالة المقترنة بالرمز الصوفي. فباستنطاق العنوان لم يطل الأمر ليبوح بأول ملمح صوفي من خلال عبارة "الولي الطاهر"، فهي عبارة قوية الدلالة، بإحالتها على الإنسان المستقيم طاهر الروح، الذي يحمل صفات التقوى والاستقامة، المحترم بين الناس والمقبول عند الله، مستجاب الدعاء¹⁸، وبهذا تكون هذه العبارة ظاهرة الاتصال وثيقته بالقاموس الصوفي، لتكتمل الصلة من خلال كلمة "الدعاء"، التي تحتزن أبعاداً صوفية متعددة، بدءاً من الارتباط مروراً بالحب وصولاً إلى الاستجابة، ولا يخفى أن أهم مبادئ الصوفية تتمثل في الذكر المستمر، المتجسد بشكل واضح في الدعاء، الذي يعني الحب والخضوع والضعف في آن واحد، كما يعبر، من جهة أخرى، عن فقدان قدرة الفعل المادية.

وحين نتعمق إلى مستوى النص نلاحظ أن ما كان من تجل صوفي لمسناه على مستوى العنوان صار باهت الصورة خافتها، حيث لا نكاد نجد ملامح القاموس الصوفي بنفس القوة، إلا في ومضات بسيطة تتعلق أساساً بحضور شخصية الولي في الأحداث، كمتفرج أكثر من كونه فاعلاً، وفي لحظات زمنية معينة، اقترن فيها هذا الحضور ببعض المفاهيم كالمقام: "اقتحم الطابق السابع ليجد نفسه في مقامه قاعة ليس لأبعادها حدود"¹⁹، والدعاء في المرة الأولى "يا خاني الأرواح نجنا مما نخاف"²⁰.

ولم يكن هذا الحضور مقصودا لذاته كبعد صوفي، بل في شكل معطيات تخدم الحدث الذي بنيت عليه الرواية بالأساس، فالدعاء في الحالة الآتية كان محفزا للحدث الروائي²¹، الذي يأخذ منحى جديدا تماما بعده: "كان الولي الطاهر في مثل تلك الحالات التي تسبق وضعيات الصرع التي تتنابه.. توضأ، صلى ركعتين. رفع كفيه يدعو مغمض العينين، يا خافي الألفاظ. سلط علينا ما نخاف.. ظل يصلي ويكرر الدعاء.. الله وحده يعلم كم زمنا انقضى على التوسل الحثيث أمام باب المعشوق"²². غير أن ذلك لا يعني أبدا إفراغ بعض الألفاظ من محمولاتها الدلالية التي تمظهرت على مستوى العنوان، كلفظة الدعاء الدالة بشكل ضمني على الالفعل، حيث وجد هذا المحمول الدلالي امتدادا له في النص من خلال تمظهرات عدة، أبرزها فقدان القدرة على التغيير وانتظار الفعل من قوة غيبية، مثلما هو بارز في الركون إلى الدعاء والتوسل، بما توضحه حالة الولي الطاهر التي تشبه حالة المصروع، فاقد الوعي وفاقد القدرة على الفعل كذلك. وبالتالي فسيطرة الحدث على الرواية جعل قوة الصورة الصوفية المتجلية في العنوان تنحصر دلالتها في النص، حتى كادت تختفي إلا في حدود الفعل القلبي المتصل بالدعاء بعد فقدان القدرة على الفعل الحقيقي.

وبما أن العناوين في أغلبها تدل على مواضيع نصوصها حاولنا رصد ذلك في الزلزال والولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء حيث تراءى لنا العنوان الأول بدلالته المختزنة فيه حاضرا بقوة على مستوى نصه دالا عليه، على عكس العنوان الثاني الذي كان حضور دلالته ذو تجل محدود كاد يلامس حدود الغياب التام، ولا يمكن فصل ذلك أبدا عن الإطار الزمني الذي كتبت فيه الروايتان باعتبار النص المعاصر لم يعد يؤدي تلك الوظيفة الإحالية المباشرة على نصه، بل أصبح هو في حد ذاته نصا يحال عليه وعلامة مراوغة، على عكس الفترة التي كتبت فيها الزلزال.

ثالثا- انتقال الدلالة والتفاعل النصي:

في هذا المستوى سنتابع الفعل التوالدي للنصوص الروائية، وكيف انعكس ذلك على مستوى العنونة، وعلى عكس المستويين السابقين أين كان تحليلنا يبدأ من العنوان ليتجه نحو النص، نعتمد في هذه المرة على الانطلاق من النص لإضاءة عتبه العنوانية، باعتبار أن "العناوين تؤدي وظيفتها في اتجاهين متعاكسين لكنهما متكاملان، أي أن العنوان يمكن أن يكون منطلقا

لوصف النص وتفسيره وتأويله، كما يمكن أن يكون هو نفسه محل وصف وتغيير وتأويل انطلاقاً من النص في ذاته، فهو إذن مفسر للنص، مفسر به²³.

1- المحمول الإيديولوجي:

في هذا المستوى سنحاول تتبع فاعلية التناسل باعتباره أحد المتعاليات النصية، في توليد الإيحاءات، وتحريك الدلالة بين روايتي "اللاز" و"العشق والموت في الزمن الحراشي". فعلى مستوى المتن نجد رواية "العشق والموت في الزمن الحراشي" تتناسل مع رواية "اللاز" في نقطتين أساسيتين: تتعلق أولاهما بالشخصيات الروائية الحاضرة في الرواية الأولى، والتي وجدت لها امتداداً في الرواية الثانية بحضور مادي جسده اللاز، همو، الربيعي، بعطوش، أو بحضور ضمني في شخص زيدان والشيخ الذي قتله، حضورهما الذي جسده امتداد فكريهما المتضادين، عبر جملة واليامنة وإبراهيم في صورة زيدان، ورضوان ومصطفى كحالة مستنسخة عن الشيخ. أما ثاني الملامح التناسلية فيتعلق بفكرة الصراع، الجسد في الرواية الأولى من خلال الصدام الحاصل بين أطروحات زيدان التقدمية والشيخ الرجعية، والذي انتهى لصالح القوى الرجعية²⁴، لينتهي بشكل آخر في الرواية الثانية بمزج هذه القوى الرجعية ممثلة في مصطفى وجماعته، في صراعها مع جملة ورفاقها²⁵.

وإذا ذهبنا لتلمس هذه الأبعاد على مستوى النص المحيط، تصادفنا أول علامة تناسلية:

العنوان الفرعي للرواية الثانية "الكتاب الثاني"، وهي إحالة مباشرة على النص الأول، حيث كُتب على غلاف رواية "العشق والموت في الزمن الحراشي" في الأسفل عبارة "الكتاب الثاني"، فيكون بذلك اللاز هو الكتاب الأول، الذي تتولد له دلالات جديدة في الكتاب الثاني، ذات صلة بالتيمة المعالجة فيهما والمرتبطة بالتناقضات على الأصعدة المختلفة.

أما على المستوى الدلالي لاحظنا أن العنوان الأول "اللاز" مشحون بجملة من الإيحاءات الدلالية التي تولدت في مرحلة التحليل الأولى، المحيلة أساساً على فكرة الصمود في ظل وجود صراع حاد وهو صراع ضمني، في حين يبرز الصراع في العنوان الثاني بشكل جلي، من خلال التضاد الدلالي الموجود بين مفردتي "العشق والموت"، بين إرادة الاستمرارية وإرادة الختام، وفي مستوى الإسناد إلى الزمن الحراشي التي يحيل إلى فضاء وزمان قاسيين، وبذلك صار الصراع المحمول الأقوى في هذا العنوان، وهي قرينة ثانية مؤشرة على نجاعة التناسل في تمرير الدلالة بين العنوانين. وإذا ما عدنا إلى المتن استطعنا أن نحدد الواصل المعنوي بين العنوانين، من خلال الصراع

القائم بين رفاق جميلة وجماعة مصطفى²⁶، وفي هذا تتعالق الدلالة الكامنة في المتن الأول مع الدلالة المتفجرة في عنوان الرواية الثانية بعد أن اتضحت الأبعاد الضمنية لتعالق العنوانين.

2- المحمول الديني:

لم يتوان الإقطاع، ممثلاً بشخصية بولرواح في رواية الزلزال، في استخدام شتى الوسائل للوقوف في وجه الحركة التغييرية، ولو كان ذلك عن طريق استغلال المقدس والدين: "يا سيدي راشد، يا ولي الله. قضيت تسع ساعات في الطريق قادماً من العاصمة في هذا الحر، لأمر يهمني، وبهمّ جميع الصالحين الذين أورثهم الله أرضه.."²⁷، وكأن وطار في عمله هذا يحاول محاورة الأطروحات الإقطاعية المرتبطة بالسند الديني في مستواها العادي، ليُظهر في روايته الأخرى "العشق والموت في الزمن الحراشي" الخطورة الحقيقية التي أصبحت تشكلها تلك الطروحات، بعد انتقالها إلى مستوى النخب، ومن إرادة التجسيد إلى محاولة الفعل، ويتجلى ذلك من خلال الصراع بين الجناح النوراني الممثل للطليعة النضالية جميلة ورفاقها، والجناح الظلامي المستتر تحت عباءة الدين لتحقيق مصالحه ممثلاً في مصطفى وجماعته²⁸. ثم ينقلنا وطار، بعد طول انتظار، في رواية "الشمعة والدهاليز" إلى مستوى آخر مقترن بإمكانية تحقيق الأطروحات الأولى في قالب من التحوير الذي مسها مع مرور الزمن، حيث يسائل جدلية التاريخ التي صعّدت بالحركات الإسلامية المتطرفة²⁹، بعد أن كانت مطمورة في دهاليزه السحيقة، وكيف أعادت استنساخ شخصية بولرواح بشكل أو بآخر من حالة الجنون إلى حالة العقل المدمر، ومنحت مصطفى حق تشويه وجه جميلة في تكرار لحادثة ذبح زيدان.

وبمدّ جبل وصل بين العنوان الأول "الزلزال" والعنوان الأخير "الشمعة والدهاليز" تتضح القوة الإيحائية الكبيرة لحركة الزلزال في اتجاهها السلبي، تلك الحركة التي مسّت الأساسات العميقة لمختلف الطبقات والتحويلات الحاصلة على مستوى البنية المجتمعية، خاصة بعد ظهور دوامة العنف والتقتيل التي اكتسحت كل شيء وأتت على كل أمل في تغيير حقيقي³⁰. وبذلك تُفهم المفارقة الموجودة في عنوان "الشمعة والدهاليز"، تلك الشمعة التي تمثّل بصيص الأمل الذي ظلّ يتشبث به الشعب، والمجسدة، حسب وطار، في إنجازات المرحلة الوطنية السابقة والمكتسبات التي أنجزتها الثورة في نضالها ضد المستعمر، ثم ضد القوى الرجعية التي تجسّد وجوه التطرف المختلفة

المتخفية في دهاليز الظلام تتحين الفرصة لتستنسخ نفسها. وبهذا نجد أن التناص الموجود على مستوى المتن خلق نوعا من الارتباطات الدلالية بين عناوينها.

وهكذا فإن وطار استغل الفعل التناصي في جل رواياته متقاطعا مع التاريخ والتراث والموروث الصوفي وغيرها، كما عمل في جانب آخر على محاورة نصوصه، ومدّ جسورا واصلة بينها بشكل مباشر أو ضمني، فانعكس ذلك على دلالات عناوينه وتعالقها فيما بينها، الواضح في "اللاز" و"العشق والموت في الزمن الحراشي"، والمفهوم ضمنا من خلال استنطاق الرموز في "الززال" و"الشمعة والدهاليز".

خاتمة:

إذا كانت النصوص مرآة تعكس وعي وطار بواقعه ومحاولته التعبير عن ذلك، فإن عناوينه لم تشذ عن ذلك، باعتبار أنها هي الأخرى يمكن أن تشكل نصوصا تحمل بداخلها قوة وجودها، لتصبح دالة على موقف الكاتب، ولاشك أن التزام وطار اتجاه قضايا مجتمعه في نصوصه وجد له امتدادا فعليا في عناوينه، جعلها تبوح بشكل مباشر أو ضمني برسالته، وبواسطة الفعل التأويلي يمكن تتبع الاتجاه الفني الذي يتبناه، وكشف مرجعيته الفكرية والثقافية، ورؤيته الإيديولوجية. وهذا ما يذهب بنا رأسا إلى الفاعلية التي استطاع وطار أن يخلقها من خلال استثمار التناص كآلية إجرائية في نقل الأفكار من نص إلى آخر، وتوالد دلالات ذلك على مستوى العناوين. وهكذا نخلص إلى أن اشتغال وطار على عناوين رواياته لا يقل عن اهتمامه بالمتون في حد ذاتها، لإدراكه التام بمدى أهمية العناوين كعنصر أول يلتقي به القارئ ومن خلاله يستطيع التواصل مع النص.

وبهذا فإن عملية العنونة عند الطاهر وطار انتقلت من ملامسة الوظيفة التعيينية للعنوان إلى ممارسة واعية بالأبعاد المختلفة له، فصارت عناوينه تصدر عن إرادة فاعلة وإستراتيجية مضبوطة، تتيح للقارئ التفاعل معها، لما شحنت به من محمولات متنوعة محفزة على فعل القراءة.

هوامش:

¹ - الطاهر وطار: اللاز، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، (الجزائر)، 2007.

² - المصدر نفسه، ص 10.

- ³ - المصدر نفسه، ص78.
- ⁴ - المصدر نفسه، ص 132.
- ⁵ - واسيني الأعرج: الطاهر وطار- تجربة الكتابة الواقعية، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)، 1989، ص47.
- ⁶ - الطاهر وطار: تجربة في العشق، مكتبة الاجتهاد- المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية (الجزائر)، 1989.
- ⁷ - الطاهر وطار: الخوات والقصر، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)، 1984.
- ⁸ - المصدر نفسه، ص 28.
- ⁹ - المصدر نفسه، ص 256.
- ¹⁰ - الطاهر وطار: العشق والموت في الزمن الحراشي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية (الجزائر)، 2007.
- ¹¹ - الطاهر وطار: الثمعة والدهاليز، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية (الجزائر)، 2013.
- ¹² - الطاهر وطار: الزلزال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية (الجزائر)، 2013.
- ¹³ - أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب (القاهرة)، ط1، 2008، م2، ص990، مادة زلزل.
- ¹⁴ - الطاهر وطار: الزلزال، ص22.
- ¹⁵ - المصدر نفسه، ص122.
- ¹⁶ - المصدر نفسه، ص210.
- ¹⁷ - الطاهر وطار: الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية (الجزائر)، 2007.
- ¹⁸ - رفيق العجم: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون (بيروت)، ط1، 1999، ص1055 وما بعدها، مادة ولي.
- ¹⁹ - الطاهر وطار: الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء، مصدر سابق، ص27.
- ²⁰ - المصدر نفسه، ص09.
- ²¹ - المصدر نفسه، ص07، من مقدمة الروائي.
- ²² - المصدر نفسه، ص25.
- ²³ - عثمان بدري: "وظيفة العنوان في الشعر العربي الحديث"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، منشورات جامعة الكويت، الكويت، المجلد21، العدد 81، 2003، ص19.
- ²⁴ - الطاهر وطار: اللاز، مصدر سابق، ص219.
- ²⁵ - الطاهر وطار: العشق والموت في الزمن الحراشي، مصدر سابق، ص242.
- ²⁶ - المصدر نفسه، ص149/148.
- ²⁷ - الطاهر وطار: الزلزال، مصدر سابق، ص121.
- ²⁸ - الطاهر وطار: العشق والموت في الزمن الحراشي، مصدر سابق، ص108/107.

- ²⁹ - الطاهر وطار: الشمعة والدهاليز، مصدر سابق، ص210.
³⁰ - صلاح فضل، "دهاليز الطاهر وطار"، مجلة نزوى، عُمان، ع7، يوليو 1996، ص34.